# مكانة الكلام في التجربة الغزّالية
# محدّدات الموقف وزوايا الاشتغال

**د. مسعود لبيوض**
**جامعة الجزائر(2)**

**ملخص:**
استند كثير من الباحثين والمؤلفين في استخلاص موقف الإمام الغزالي من علم الكلام إلى كتاب أساسي هو "المنقذ من الضلال،" ولئن كان هذا الكتاب يزوّدنا بموقف جليّ لحجّة الإسلام من العلم، فإنّه بالمقابل يتركز على معيار واحد في ذلك، ولا يشير إلى جوانب أخرى كثيرة واردة في كتب أخرى لا تقل أهميّة عن الكتاب المذكور، وهو ما دفعنا إلى النظر في كرونولوجيا موقف حجة الإسلام منذ البدايات الأولى لتأليفه في العلم إلى غاية السطور الأخيرة التي كتبها، مستندين إلى عدد من أهمّ مؤلفاته.
الكلمات المفتاحية: الكلام؛ العقيدة؛ التصوّف؛ العامة؛ الخاصة.

Abstract :

Al-Ghazali attitude towards muslim theology «IIm el kalam » was complicated; in one hand he was one of the largest contributors in this kind of science in it he wrote a number of books, in the other hand he critized this science, and he said that he didn’t find his purpose in it..

**مقدمة**:

في الموقف من علم الكلام كثير من الاختلاف، بين مرحّب ورافض ومتحفّظ، بين محذّر من مضرّاته وسوء عواقبه من جهة، ومغلّب لمنفعته وقائل بضرورته من الجهة الأخرى، وبين هذا وذاك طرف ثالث، من أبرز ممثليه حجّة الإسلام الغزالي، تجده، بالكم الهائل من مؤلفاته، من أبرع وأبرز علماء الكلام، وتجده بالمقابل صاحب أعتى الانتقادات الموجّهة إلى العلم وأهله! بالفعل، تميّز أبو حامد بتعامله الخاصّ مع بحر من الأفكار والفرق والمذاهب، فلم يسع وراء الصيت أو الجاه أو المناصب، ولم يستعمل المداهنة مع الحكام ولا مع العامة، بل اختطّ لنفسه طريقا أملته عليه قناعاته، فتميّز وتفرّد وأمتع، ظلّ الصّدق ديدنه، ووهب حياته للمعرفة والحقيقة، فكانت تجربته عميقة أشدّ ما يكون العمق، وكان نضاله ومجابهته للهادمين معلما بارزا في سيرته. هو رجل تنقل بين جلبات الأفكار والنظريات، وارتحل بين دهاليز المذاهب والفرق، واستولت عليه مشكلة اليقين، فقوي إيمانه حينا، واشتدّت عليه الحيرة حينا آخر، إلى أن ارتضى طريقه الخاص.. طريق الكشف والتصوف. وقبل هذه المرحلة ظلّ من أبرز علماء الكلام، ممارسةً وتدريسًا وتأليفا، حتى افتكّ لنفسه مكانة مرموقة جعلته جديرا بلقب "حجّة الإسلام"، فما هو موقع هذا العلم

من تجربته، كيف يكون الرّجل قمّة من قمم الكلام، ولكنه يرتضي لنفسه، مع ذلك، مسارا مغايرا في النهاية، مسار الذوق والكشف الصوفي؟

1- تنوّع الكتابة الغزّالية:

حجّة الإسلام من المكثرين في التأليف، هو من أولئك الذين تعجز أقلامهم عن استيعاب غزارة الأفكار والخواطر، وعن مجاراة تدفّق الوجدان، لهذا، نجد له أعمالا تنسب إلى ميادين مختلفة، من فقه وأصول وكلام وفلسفة وتصوّف وغير ذلك. وليست بنا حاجة إلى الإطناب في وصف أعماله، فهي منتشرة منذ زمانه، وأغلبها معلوم للعامّة والخاصة؛ إنّ له في الموعظة والمعاملات تحفًا مثل **إحياء علوم الدين**، وله في الفلسفة جواهر مثل **مقاصد الفلاسفة**، وله في الكلام دُررًا، مثل **الإقتصاد في الإعتقاد**، وله في الأصول ياقوتا مثل **المستصفى من علم الاصول** ...

ولئن كانت كُتب الغزالي معلومة للكثيرين، فإنّ ذلك لم يمنع أن تُنسب إليه أقوال وكتب ليست له، ومن هنا جاءت الأبحاث الكثيرة التي تناولت مؤلفاته من حيث أسلوبها وتسلسلها الزمني وصحّة نسبتها إلى حجّة الإسلام. وبالفعل نسب إليه عدد هائل من العناوين والرسائل، تأكدت صحّة نسبة بعضها إليه، وبقي جزء آخر من المؤلفات مشكوكا في علاقته بالغزالي أو بعيد الصّلة به، ممّا استدعى التحرّي والفحص والتدقيق لتمييز الصّحيح من المنخول، واستبعاد ما لا يتماشى مع أفكار الرجل وأسلوبه، فاتخذ كل فريق من الباحثين معايير خاصّة للوصول إلى هذا المبتغى، وكان هذا السعي منذ منتصف القرن التاسع عشر، عمد فيه المستشرقون إلى وضع تصنيف لمؤلفات الغزالي مثلما فعل ر. جوشة R. Goche حين فحص أصالة أربعين مؤلفا للغزالي في البحث الذي نشره في برلين سنة 1858، ومثلما فعل ماكدونالد D. B. Macdonald سنة1899، وأيضا جولدتسيهر Goldziherالذي تناول بعض مؤلفات الغزالي في الكتاب الذي نشره عن المهدي بن تومرت سنة 1903 في الجزائر، وهو ما عاد إليه أثناء نشره لكتاب "فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية" سنة1916..

ولعلّ أول محاولة جادّة لفرز وتصنيف مؤلفات الغزالي وبحث أصالة ما نسب إليه، كانت على يدي لويس ماسينيونL. Massignon في كتابه "مجموع نصوص غير منشورة خاصة بتاريخ التصوف في بلاد الإسلام" نشر في باريس سنة 1929، قسّم فيه مؤلفات الغزالي إلى أربع فترات زمنية متلاحقة. وجاء بعده أسين بلاثيوس Asin Palacios ببحث مفصّل ضخم: "روحانية الغزالي" في أربعة مجلدات 1934-1941، أورد فيه كشفا بالكتب المنحولة التي نسبت إلى حجّة الإسلام، وتوالت بعد ذلك محاولات جادّة كثيرة كمحاولة مونتجمري و ت W. M. Wat وألبرت حوراني وموريس بويج وكذا عمل عبد الرحمن بدوي المتميّز بترتيبه الزمني وبإحصائه لمخطوطات الكتب وطبعاتها من حيث السنوات والأماكن، وذكر لمناسبات كل كتاب، والدراسات حولها...[1]

2- **معالم الاجتهاد الكلامي عند الغزالي**:

من المهم إذن التعمّق في نصوص الغزالي من أجل فهم حقيقة موقفه من علم الكلام، فهو وإن كان قد ترك روائع في علم الكلام، فإنّ إمعان النظر في مجمل تجربته، وفي المسار الذي ارتضاه في نهاية حياته، يبعث على الاستشكال والتنقيب في ثنايا الموقف، ومن شأن هذا الفحص أن يقودنا إلى فهم تقديره الشخصي الحقيقي للعلم..

علم الكلام مكوّن أساسي من مكوّنات الثقافة والحضارة العربية الإسلامية، نوقشت في إطاره طيلة قرون طويلة مسائل جليلة ودقيقة حول الألوهية والنبوة والإيمان والكفر والقدر والجزاء والصلاح والحكم والعدل والجزء والحركة والسكون والطّفرة وغير ذلك، وقد انطبع هذا العلم بالتكوين الفكري والقناعة المذهبية للفاعلين فيه، فأضحت الممارسة الكلامية والخلفيات المتحكمة فيها متنوّعة كثيرا، ويعود هذا التنوّع أساسا إلى خصوصيّة الأنسجة الثقافية المحلية لكل منطقة، وإلى الممارسات السياسية المرحلية التي كانت تلازم العلم في تطوره، وهو ما جعله غنيّا بالنظريات والتصورات وفضاءً خصبًا للتدليل والحجاج والتناظر، لاسيما مع تفاعله مع علوم أخرى من منطق وأصول فقه وأنساق فلسفية وغير ذلك[2] ..

تلقى حجّة الإسلام تعليمه في العلوم الشّرعية والعقلية على أيادي عدد من العلماء من أبرزهم أبو المعالي الجويني(478ه)، وذلك حين "قدم نيسابور، ولازم إمام الحرمين، وجدّ واجتهد، حتى برع في المذهب والخلاف والجدل والأصلين والمنطق، وقرأ الحكمة والفلسفة، وأحكم كل ذلك"[3]، وقد وصفه أستاذه الجويني بأنّه بحر مغدق، لما رأى فيه من صفات قلما تجتمع في إنسان، حيث كان "شديد الذكاء حادّ النظر، عجيب الفطرة، مفرط الإدراك، قويّ الحافظة، بعيد الغور، غواصّا على المعاني الدقيقة، جبل علم، مناظرا محجاجا".[4] وعلى كل حال من المعلوم اشتغال الغزالي بالتدريس والتصنيف حينما ارتحل بعد وفاة أستاذه إلى "المعسكر"، وهو حينها ملتقى العلماء وملاذهم، ومجلس الوزير نظام الملك الذي لم يلبث أن تلقاه بالتعظيم والتبجيل، وأمره بالتوجّه إلى بغداد للتدريس في مدرسته **النظامية**، لِما رأى من مناظرته العلماء في مجلسه وقهره لخصومه وظهور كلامه عليهم واعترافهم بفضله، فكانت مكانا للتدريس ونشر العلم والإفتاء والتصنيف..[5] وظلّ الغزالي مرتحلا بين بغداد ودمشق وبيت المقدس والحجاز وطوس مدرّسا مدققا مؤلفا وباحثا عن الحقيقة واليقين وسكون القلب..

من أوائل كتب الغزالي في علم الكلام "**الاقتصاد في الاعتقاد**"، قام فيه بشرح "**الرسالة القدسية**" أو"**قواعد العقائد**" قال عنه صاحبه بأنّه "يحوي لباب علم المتكلمين، ولكنه أبلغ في التحقيق، وأقرب إلى قرع أبواب المعرفة من الكلام الرسمي الذي يصادف في كتب المتكلمين"[6] وقد ألفه قبل سياحته وعزلته المشهورة..

وفي موضع آخر ذكر حجّة الإسلام أنّ العلوم تتفرّع إلى علوم صدف وعلوم اللباب، أمّا علم الكلام فيتشعّب من القسم الثاني من الطبقة السّفلى من علوم اللباب، وهذا يدلّ بطبيعة الحال على مكانة العلم عند حجّة الإسلام لأنّه من العلوم الجوهرية عنده، وليس من تلك التي يمكن اعتبارها وسيلة لغيرها من العلوم، يقول: "القسم الثاني هو محاجّة الكفار ومجادلتهم، ومنه يتشعّب علم الكلام المقصود لردّ الضلالات والبدع وإزالة الشبهات، ويتكفل به المتكلمون، وهذا العلم قد شرحناه على طبقتين سمينا الطبقة القريبة منهما **الرسالة القدسية** والطبقة التي فوقها **الاقتصاد في الاعتقاد**.."[7]

في هذا الكتاب الأخير إذن يتجلى موقف الغزالي من علم الكلام، إنّه موقف داعم صريح، ولكنه من جهة أخرى متحفّظ، إنّه أوّلا، في مقدمة الكتاب، يبيّن منهجه الواقع بين الإفراط والتفريط في استخدام العقل والاعتماد على الخبر، فالاهتداء للصّواب والرشاد في نظره لابد أن يمرّ بالجمع بين الأداتين، ومن الخطأ عنده إنكار مناهج البحث والنظر والاكتفاء

بالأثر والتقليد أو الاقتصار على محض العقل وتقديمه في كل شيء، "فالعقل مع الشرع نور على نور".. [8]

وقد أتبع حجّة الإسلام مقدمة الكتاب بتمهيدات أربعة، يهمّنا منها بشكل خاص التمهيدات الثلاثة الأولى، لأنّها تعطينا نظرة واضحة عن وجهة نظر الغزالي حول أحقية الاشتغال بالعلم وعن ضرورته من عدمها بالنسبة إلى عامة المسلمين وخاصّتهم، وفعلا ورد التمهيد الأوّل لبيان أنّ "الخوض في هذا العلم [علم الكلام] مهمّ في الدين"؛ وفي هذا الباب الذي يذكّرنا برسالة أبي الحسن الأشعري(ت324ه) المعروفة "استحسان الخوض في علم الكلام"، تتجلى أهميّة العلم من مقصوده ومن الغاية المرجوّة منه، وهي "إقامة البرهان على وجود الربّ تعالى وصفاته وأفعاله وصدق رسله..وكلّ ذلك مهمّ لا محيص عنه لعاقل."[9] وفي التمهيدين الثاني والثالث تتحدّد لنا وجهة نظر الغزالي أكثر، فقد بيّن في الثاني كيف أنّ "الخوض في هذا العلم، وإن كان مهمّا، فهو في حقّ بعض الخلق ليس بمهمّ، بل المهمّ لهم تركه"، ويمكننا أن نفهم من هذا أنّ ترحيب الغزالي بالعلم وإشادته بفائدته ليست مطلقة، لأنّ نفعه لا يسري على الناس جميعا، بل هو متعلق ببعض الخلق وبطائفة من الناس دون غيرها، ويتعلق بشكل أساسي بإزالة الشكوك عن أصول العقائد، إذ الأدلة التي تحرّر فيه بمثابة أدوية تعالج مرض القلوب، "والطبيب المستعمل لها إن لم يكن حاذقا ثاقب العقل رزين الرأي..كان ما يفسده بدوائه أكثر مما يصلحه."[8] وينتهي الغزالي إلى تصنيف الناس في هذا الشأن إلى أربع فرق، أولاها يتميز أهلها بصفاء الإيمان والاشتغال بالعبادة مثلما كان حال الصحابة، فهؤلاء يتركون على حالهم وينبغي أن لا تشوّش عقائدهم ببراهين ولا حجاج، والثانية طائفةُ عناد وإصرار على الباطل، لا ينفع معها مناظرة ولا مجادلة، والثالثة طائفة قام اعتقادهم على التقليد والسّماع، وهم أهل فطرة وفطنة وذكاء، فتنبّهوا من أنفسهم لإشكالات شكّكتهم في عقائدهم، فهؤلاء يتمّ التعامل معهم بتدرّج، فيكون الأمر في البداية بالكلام المقنع المقبول عندهم أو بالاستناد إلى آية أو حديث أو كلام ذوي الفضل، فإن لم تعد إليهم طمأنينتهم، يلجأ إلى الأدلّة الحقيقية ولكن على حسب الحاجة وفي موضع الإشكال المخصوص. أمّا الفرقة الرّابعة فهم طائفة من أهل الضّلال ومن ذوي الفطنة والذكاء، ويتوسّم فيهم الانقياد إلى الحق، فيستمالون إلى الحق، ويرشدون إلى الاعتقاد الصحيح بعيدا عن المعاندة والتحدّي.. ولمّا انتهى الغزالي من هذا التمهيد انتقل إلى التمهيد الثالث وذكر فيه أنّ الاشتغال بهذا العلم من فروض الكفايات، فلابد أن يكون في كلّ قطر من الأقطار من يدعو إلى الحق بالبرهان ويتصدّى للمبتدعة الذين يشيعون الشّبه بين أهل الحق..[9]

إننا نعلم كيف لقي هذا العلم معارضة شديدة من كثير من والفقهاء وبعض كبار علماء الإسلام، لعلّ من أبرز المواقف الرّافضة له موقف الشافعي(ت204هـ)، الذي كان يكره الكلام ولا يرى فيه فائدة، إذ نُقل عنه قوله: "حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد، ويحملوا على الإبل، ويطاف بهم في العشائر والقبائل، وينادى عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام.."[10]

هل اتخذ الغزالي، وهو شافعي المذهب على المستوى الفقهي، الموقف نفسه أم إنّ اعتبارات أخرى تدخلت في تحديد موقفه من العلم؟ وهل كان غافلا عن المطاعن التي وجّهها كثير من الفقهاء والعلماء إلى العلم؟ أهو من العلوم التي لاقت عنده القبول والإشادة أم إنّه يصنّف

مع تلك التي تقود أهلها إلى المروق والزيغ؟ للإجابة على هذه التساؤلات وتوضيح الموقف أكثر، لابد من تتتبع أقوال الغزالي في كتبه اللاحقة، من أهمّها كتاب **إحياء علوم الدين** الذي نجد فيه تدقيقا في حيثيات الموقف، حيث يُجيب، في معرض حديثه عن تربية الصبيان وضرورة إبعادهم عن الجدل والكلام، عن تساؤل: هل تعلّم هذا العلم حرام مذموم أم هو مباح ومندوب إليه؟ هنا يلاحظ الغزالي أنّ النّاس قد أسرفوا في الحكم، فمن قائل إنّه بدعة وحرام، ومن قائل إنه واجب وفرض، إمّا على الكفاية أو على الأعيان، ويذكر في الفريق الأوّل الشافعي(ت204ه) ومالك(ت179ه) وأحمد بن حنبل(ت241ه) وغيرهم، ويحكي أقوالهم في ذمّ الكلام والتحذير من آثاره الخطيرة على عقيدة المرء وسلامة القلوب والمجتمع، أما الفريق الثاني فيذكر أقوالهم في الاستناد إلى القرآن في محاجّة الكفار ويذكر صنيع علي بن أبي طالب(40ه) الذي ناظر رجلا قدريا، وبعث عبد الله بن عباس (68ه) لمجادلة المبتدعة من الخوارج، وهو أيضا ما فعله الحسن(50ه) وابن عباس وعبد الله بن مسعود(32ه) الذي ناظر يزيد بن عميرة في الإيمان، كل هذا مع حرص حجة الإسلام على التنبيه إلى أنّ خوض هؤلاء في المسائل كان قصيرا قليلا وعند الحاجة، وينتهي الغزالي إلى رأي وسط، فيرى أنّ إطلاق القول بذمّ العلم في كل حال أو بحمده في كل حال خطأ[11]، إذ فيه منفعة من جهة ومضرّة من جهة، وهو باعتبار مضرّته حرام، وهي تتمثل في إثارة الشبهات وتحريك العقائد وإزالتها عن الجزم.. وأمّا منفعته فتكمن في حراسة عقيدة العوام وحفظها عن تشويشات المبتدعة بأنواع الجدل، وينبغي أن يكون هذا على قدر الحاجة وفي وقتها، مثلما يعمل الطبيب الحاذق مع الدواء الخطر، فإنّ العوام ينبغي أن يتركوا على سلامة عقائدهم، وليس من الصائب تدريس علم الكلام على العموم كتدريس الفقه والتفسير.. وأمّا إذا شاعت البدعة، وخيف على الصبيان أن يخدعوا فلا بأس أن يعلموا قدرا يسيرا مختصرا من الكلام قدّره الغزالي في البداية بما ذكره هو في كتاب **الرسالة القدسية**، فإن دامت الحاجة ببعضهم يترقى بهم إلى قدر آخر هو ما جاء في كتاب **الاقتصاد في الاعتقاد**..[13]

من الظاهر إذن أنّ موقف حجّة الإسلام من علم الكلام ثابت لم يتبدل، إذ لا نجد كبير فرق بين ما جاء في **الإحياء**، وبين ما ورد في كتاب **الاقتصاد في الاعتقاد**،، ولعلّ أبرز ما يشدّنا في هذا الموقف هو أنه لا يدرج جميع المشتغلين بالمسائل الاعتقادية فيه في دائرة المتكلمين، بمعنى أنّ الفِرق الأولى التي ظهرت ابتداء من نهاية القرن الأول الهجري ليست عنده فرقا كلامية بل هم بالنسبة إليه مجرد مبتدعة، وهذا ما نفهمه من مواضع أخرى متناثرة في كتبه منها قوله: "وهذا الجدل الذي يسميه المعتزلة وأتباعها كلاما، فذلك خرافات الحديث وفضلات المنطق ورأس البدعة وأصل الزندقة..."[14]

إن هذا يعني أنّ الكلام ما هو في النهاية إلا ممارسة سُنية، ولا يمكن إدراج باقي الاجتهادات فيه، وهو ما يتأكد إذا نظرنا إلى الغاية الأساسية التي يحددها الغزالي في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، وإن كان قد ركز في كتاب الاقتصاد، مثلما أوردنا أعلاه، على جانب توكيدي حينما قال إن مقصود العلم هو إقامة البرهان على وجود الرّب تعالى..

وننتقل إلى مجال علمي مختلف، ونوع آخر من الكتب اللاحقة، يفصّل فيه أيضا رأيه في العلم ولكن من زاوية أخرى، ونقصد هنا كتابه الشهير في أصول الفقه **"المستصفى من علم الأصول"**، الذي قال عنه ابن خلدون إنّه من أحسن ما كتب المتكلمون في الفنّ،[15] في هذا الكتاب لا يتحدّث حجّة الإسلام عن علم الكلام من حيث ضرورته من

عدمها، ولكن من زاوية موقعه من العلوم الدينية، أهو أحد هته العلوم أم إنّه علم مستحدث طارئ عليها؟

لنبدأ أوّلا بعرض موقف حجّة الإسلام من العلم في الكتاب الذي تحدثنا عنه، أي كتاب "**المستصفى**" الذي أتى، بحسب ترتيب بدوي وكثير من الباحثين، لاحقا على كتابي **الاقتصاد والإحياء**، حيث يعود الغزالي لتأكيد وجهة نظره من العلم؛ إنّها وجهة نظر إيجابية إلى حدّ بعيد، فهو عند أبي حامد الغزالي ليس علما مهمّا فقط، بل أكثر من ذلك، إنّه أساس تلك العلوم وعمودها، فهو العلم الكلي من العلوم الدينية، لأنّه في حين ينظر المتكلم في أعمّ الأشياء وهو الموجود، نجد "المفسر لا ينظر إلا في معنى الكتاب خاصّة، والمحدّث لا ينظر إلا في طرق ثبوت الحديث خاصّة، والفقيه لا ينظر إلا في أحكام أفعال المكلفين خاصة، والأصولي لا ينظر إلا في أدلة الأحكام الشّرعية خاصة."[16]

إنّ هذا يعني أنّ المتكلم هو الذي تقع على عاتقه مهمّة إثبات "مبادئ العلوم الدينية كلها، فهي جزئية إذا قورنت بعلم الكلام، ولذلك فهو العلم الأعلى في الرتبة في نظره، حيث يُستند إليه في النزول إلى هذه الجزئيات، "وذلك أنّه ما من علم من العلوم الجزئية إلاّ وله مبادئ تؤخذ مسلمة بالتقليد في ذلك العلم، ويطلب برهان ثبوتها في علم آخر، فالفقيه ينظر في نسبة فعل المكلف إلى خطاب الشرع، في أمره ونهيه، وليس عليه إقامة البرهان على إثبات الأفعال الاختيارية للمكلفين، فقد أنكرت الجبرية فعل الإنسان، وأنكرت طائفة وجود الأعراض والفعل عرض، ولا على الفقيه إقامة البرهان على ثبوت خطاب الشرع، وأن لله كلاما قائما بنفسه هو أمر ونهي، ولكن يأخذ ثبوت الخطاب من الله تعالى وثبوت الفعل من المكلف على سبيل التقليد، وينظر في نسبة الفعل إلى الخطاب فيكون قد قام بمنتهى عمله."[17] وينطبق الحال أيضا على الأصولي، فهو يستند إلى المتكلم في إثباته أنّ قول الرّسول حجّة وأنّه دليل واجب الصدق، وحينها ينظر في وجوه دلالته وشروط صحته. وبذلك يعدّ كل عالم في إحدى العلوم الجزئية مقلدا في مبادئ علمه، فيستمدها من "العلم الأعلى، فيكون حينئذ قد جاوز علمه إلى علم آخر."[18]

إنّ هذا الجانب الإبستمولوجي مهمّ جدا بالنسبة إلى الغزالي، فعلاقة علم الكلام بالعلوم الأخرى، هي علاقة الأصل بالفرع، لأنه الأساس الذي تقوم عليه العلوم الأخرى حتى ولو كان علما مستحدثا، وهو بالتأكيد يقدّم لنا علم الكلام من منظور مختلف عمّا ورد في الكتب الأخرى. ومن المؤلفات المتأخرة التي تزوّدنا بمزيد من التفصيل بخصوص موقف الغزالي، نجد **"إلجام العوام عن علم الكلام"** الذي يضعه بعض الباحثين في الفترة نفسها مع "المنقذ من الضلال" أو لعله لاحق عليه. إنّ الغزالي يستعيد في "الإلجام" كافة أقوال كبار الفقهاء كالإمامين مالك والشافعي في ذمّ الخوض في مسائل العقيدة خوضا عقليا، بل إنّه يعود إلى العصر الأول وإلى موقف الرسول الكريم عندما زجر الخائضين في مسألة القدر، وموقف عمر بن الخطاب في وعيده وضربه بالدرّة للخائضين في الآيات المتشابهات، كما يستشهد بقول الإمام مالك ببدعية السؤال عن معنى الاستواء..[19] ويصل الغزالي إلى تحميل المتكلمين جزءا من مسؤولية ابتعاد الأمة عن أدلة القرآن التي تجري في عامّة الناس مجرى الماء الذي جعل الله منه كلّ شيء حيّا، وهذا ما نفهمه من قوله: "وما أخذته المتكلمون وراء ذلك من تنقير وسؤال وتوجيه إشكال ثم اشتغال بحله فهو بدعة وضرره في حقّ أكثر الخلق ظاهر، فهو الذي ينبغي أن يتوقّى والدليل على تضرّر الخلق

به المشاهدة والعيان والتجربة وما ثار من الشرّ منذ نبغ المتكلمون وفشا صناعة الكلام .."[20]

إننا بالتأكيد لا نقف ههنا على موقف مغاير لما جاء في المتون الأخرى: **الاقتصاد والإحياء والمستصفى**، فليست هناك ازدواجية في الموقف، لأنّ الإشارات الموجودة في الكتب الأخرى تفيد أنّ الموقف بقي متحفظا من العلم، خاصّة من زاوية تحديد المشتغلين به وحالات اللجوء إليه، فهو يصرّح أنّ الإيغال في البحث والخوض في مسائل الكلام ليس مباحا لجميع الناس، لأنّ هذا العلم بمثابة الدّواء ينتفع به آحاد الناس ولكن الأكثرين يستضرّون به، وهو في حكم البدعة بالنسبة إلى العامّة التي لا تطيق الأدلة التي تساق فيه – ويحرم عليهم تأويل النصوص، فمذهب الحقّ عنده هو مذهب السلف، وكلّ من بلغه حديث من الأحاديث من عوام الخلق، فعليه فيه سبعة أمور هي التقديس ثم التصديق ثم الاعتراف بالعجز ثم السكوت ثم الكف (عن البحث والتفكر فيه) ثم الإمساك (عن التصرّف في الفاظه)، ثم التسليم لأهل المعرفة..[21]

وإذا انتقلنا في الأخير إلى كتاب **المنقذ من الضلال، وهو** من أشهر مؤلفات حجّة الإسلام، فسنجد فيه عرضا لسيرة وتجربة الرّجل ومرورا على مختلف المحطات والمنعطفات التي لاقاها ومرّ بها في حياته الزاخرة؛ ففي هذا الكتاب يستعرض الغزالي جملة من التيارت الفكرية التي نقّب عن الحق وسط أفكارها، ومن أبرزها علم الكلام الذي قال فيه: "ثم إني ابتدأت بعلم الكلام، فحصلته وعقلته، وطالعت كتب المحققين منهم وصنفت فيه ما أردت أن أصنف، فصادفته علما وافيا بمقصوده، غير واف بمقصودي، وإنما المقصود منه حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة"[22]

في هذا النص، ينظر حجّة الإسلام إلى علم الكلام من زاوية جديدة حتى ولو كانت كتبه الأخرى لا تخلو من إشارات إليها، وهي مدى استيفاؤه لمعيار اليقين وتحقيقه للغاية المنشودة وهي الوصول إلى الحقّ الذي لا شك فيه. ولئن كان يقرّ له بالدور المنوط به، وهو حفظ عقيدة أهل السنة، فإنّه، بالنظر إلى هذا المعيار الذي ذكرناه غير كاف ولا واف، لأنّ علم الكلام لا يبحث عن الجديد أو لأنه كما يقول في موضع آخر، لا يكون مليا بكشف الحقائق[23]، وبالتالي من يظن أنّ فائدته هي كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه فهو مخطئ، إذ"هيهات فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف،"[24] وفي هذا إشارة إلى الطبيعة الخاصة لعلم الكلام، حيث يمتاز بسمة نضالية يسعى كل متكلم فيه ليس إلى البحث عن حقائق جديدة، بل إلى الدفاع عن الحقائق القبلية الثابتة لديه.

ومع ذلك نلمس في حديث الغزالي عن نشأة العلم، قدرا من المشروعية التي يضفيها عليه، حيث يتحدّث عن رغبة العلماء في الردّ على البدع التي ظهرت على الساحة الإسلامية، وهذا ما نفهمه من قوله: "ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة أمورا مخالفة للسنة، فلهجوا بها وكادوا يشوّشون عقيدة الحق على أهلها، فأنشأ الله تعالى طائفة المتكلمين وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب يكشف عن تلبيسات أهل البدع المحدثة على خلاف السنة المأثورة فمنه نشأ علم الكلام وأهله.."[25] ومع هته المشروعيّة التي نلمسها عند الغزالي، نجد حديثا عن بعض المآخذ التي يلحقها بالممارسة الكلامية، أبرزها كون الخوض معتمدا على استخراج مناقضات الخصوم، وقيام العمل فيه على مسلماتهم ومحاولة

إبطالها، ومن هنا نفهم لماذا لم يجد الغزالي ضالته في هذا العلم، وإن كان لم يستبعد أن يكون العلم سببا في انزياح الحيرة عن آخرين، وإن حصولا مشوبا بالتقليد كما قال.
ولا يخفي حجّة الإسلام أنّه، بعد جهد مضن، وجد ضالته في الكشف والتصوف، وأنه عثر في ثناياه على مبتغاه الذي لم يجده عند أصناف الطالبين الأخرى، ولاشك أنّ هذا المبتغى يتجلى أساسا في اليقين وراحة القلب وسكونه، سببه نور يلقيه الله في الصدور هو مفتاح لكل المعارف، لهذا نجده أحيانا يضمّ المتكلمين إلى صفّ العوام الذين يحرم عليهم التأويل، ففي صفوفهم يدخل "الأديب والنحوي والمحدث والمفسر والفقيه والمتكلم بل كل عالم سوى المتجردين لتعلم السباحة في بحار المعرفة القاصرين أعمارهم عليه الصارفين وجوههم عن الدنيا والشهوات .."[26]
خاتمة:
إنّ تتبعنا لموقف الغزالي من علم الكلام في مؤلفاته المتنوعة وفي مجالاتها المختلفة، قد أظهر لنا الجوانب المتعددة التي نظر من خلالها إلى العلم، وهي أولا الوظيفة والفائدة/المضرّة الناتجة عنه، ثمّ موقعه بين العلوم الدينية وأخيرا مدى تحقيقه لمبدأ اليقين المنشود. إنّ حجّة الإسلام بالنسبة إلى الجانب الأول، وسطٌ بين القائلين بحرمة الخوض في العلم والقول بضرورته، إذ لابد من ابتعاد و"إلجام" العامّة عنه لأنّه لا طاقة لهم بمسائله، وهو بالمقابل ضرورة ينبغي لبعض العلماء القيام بها والتكفل بحفظ العقيدة ومبادئ أهل السنة وردّ المطاعن، مع تأكيده، مثلما سيردد ابن خلدون لاحقا، على سُنية العلم وخروج الفرق الأخرى من دائرته. وبالنسبة للجانب الثاني، رأى الغزالي في علم الكلام قدرة على تأسيس مبادئ العلوم الشرعية، أي إفادتها بالبراهين التي من شأنها إثبات صحة تلك المبادئ التي تقوم عليها، مادامت مبادئ العلوم لا تتأسس داخل العلوم ذاتها بل خارجها. أما الجانب الثالث، فلقد تبيّن بوضوح تام، أنّ الطبيعة النضالية للعلم لا تكفي لتحصيل اليقين، خاصة بالنسبة إلى العقول المتوقّدة، مثلما هو حال أبي حامد، لأنّه أساسا ليس الهدف الذي نشأ العلم من أجله، ورغم نبوغ حجّة الإسلام، وقدرته الفائقة على مقارعة الخصوم واشتغاله بعلم الكلام زمنا طويلا وتأليفه فيه، فإنّه لم يجد ضالته في العلم لأنّ غاية علم الكلام وطبيعته لا تتيح البحث عن الحقائق في استقلال عن المنطلقات الدينية والمذهبية، وهو ما صرّح به في **المنقذ** وقبل ذلك في **الإحياء وجواهر القرآن**، أما لجوءه إلى الكشف والتصوف، فلا يعني استغناؤه عن العلوم العقلية وعلى رأسها علم الكلام.

---

(1) عبد الرحمن بدوي، مؤلفات الغزالي، الكويت، وكالة المطبوعات، ط.2، 1977، ص9-19.
(2) علي الإدريسي (تنسيق)، **الاتجاهات الكلامية في الغرب الإسلامي**، ضمن: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط.1،2005، ص. 5 .
(3) تاج الدين السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، تحقيق محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي، دار إحياء الكتب العربية،ج.6، طبقات الشافعية، ج6، ص196
(4) المرجع نفسه.
(5) نفسه، ص.197.
(6) انظر تقديم الكتاب بقلم أنس محمد عدنان الشرفاوي، دار المنهاج، ص40.
(7) **جواهر القرآن**، تحقيق محمد رشيد رضا القباني، بيروت، دار إحياء العلوم، ط.3، 1990، ص.39.
(8) أبو حامد الغزالي، **الاقتصاد في الاعتقاد**، دار المنهاج، ص.65، 66.

[9] المصدر نفسه.
[8] المصدر نفسه، ص.74.
المصدر نفسه، ص.78. [9]
[10] انظر كتاب **ذم الكلام وأهله**، لأبي إسماعيل الهروي، تحقيق عبد الرحمن بن عبد العزيز الشبل، المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكم، ط.1، 2002، ج.6، ص86،85.
[11] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، إندونيسيا، كرياطة فوترا، د.ت، ج.1، ص.96.
[13] المصدر نفسه، ج.1، ص.98.
[14]الغزالي، **المعارف العقلية**، تحقيق عبد الكريم العثمان، دمشق: دار الفكر، ط.1، 1963، ص.12
[15] ابن خلدون، **المقدمة**، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، دمشق، دار البلخي، ط.1، 2004 ص.201.
[16] الغزالي، **المستصفى من علم الأصول**، تحقيق حمزة بن زهير حافظ، المدينة المنورة، الجامعة الإسلامية، د.ت، ص.12.
[17] المصدر نفسه، ص.16.
[18] المصدر نفسه، ص.17.
[19] الغزالي، **إلجام العوام عن علم الكلام**، اسطنبول، مكتبة الحقيقة، 2014، ص.50،49.
[20] المصدر نفسه،، ص.64.
[21] المصدر نفسه، ص.45.
[22] **المنقذ من الضلال**، اسطنبول، مكتبة الحقيقة، 2014، ص. 8.
[23] **جواهر القرآن**، ص.39.
[24] **إحياء علوم الدين** ، ج.1، ص.97.
[25] **المنقذ من الظلال**، ص.8.
[26] **إلجام العوام**، ص.53.